

تاريخ القبول: 2025/06/03

تاريخ الإرسال: 2023/06/10

تاريخ النشر: 2025/11/30

بيان الجاحظ عند محمد الصّغير بناني من خلال كتابه "النّظريات
اللّسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال 'البيان والتّبيين'"

**The statement of Al-Jahiz according to Muhammad
Al-Saghir Bennani through his book "The
Linguistic, Rhetorical and Literary Theories of Al-
Jahiz through 'Al-Bayan and Al-Tabyeen**

هاجر بلخيري¹، حواس بري²

جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، belkhiri.hadjer@univ-alger2.dz

جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، ibnberri@yahoo.fr

مخبر الخطاب الصّوفي في اللّغة والأدب

الملخص:

نسعى من خلال هذا البحث إلى معرفة موقع بيان الجاحظ في الدّراسات الحديثة عموما وعند محمد الصّغير بناني خصوصا، خاصة أنّ قراءة هذا الأخير كانت ضمن ثنائية التّراث/ الحداثة، مستثمرا في قراءته ما توصل إليه علماء الغرب في اللّسانيات، وذلك بالتركيز على وظائف اللّغة التي جاء بها أندري مارتني ورومان جاكسون، والتي من خلالها حدّد وظائف اللّغة عند الجاحظ، وانطلاقا من هذه الأخيرة أوضح مفهوم البيان عنده.

الكلمات المفتاحية: التّراث البلاغي، الجاحظ، البيان، محمد الصّغير بناني، القراءة، الدّارسون.

Abstract:

Through this research, we seek to know the location of Bayan Al-Jahiz in modern studies in general and when Muhammad Al-Saghir Bennani in particular, especially that the reading of the latter was within the duality of heritage / modernity, investing in his reading what Western scholars have reached in linguistics, by focusing on the functions of language brought by Andre Martini and Roman Jakobson, through which he identified the functions of language when Al-Jahiz, and based on the latter he explained the concept of the statement when.

Keywords: Rhetorical heritage - Al-Jahiz - Al-Bayan - Muhammad Al-Saghir Bennani - reading – scholars.

المؤلف المرسل: هاجر بلخير، BELKHIRI.HADJER@UNIV-ALGER2.DZ

1. مقدمة:

إنَّ التَّراثَ الزَّالِخَ الَّذِي خَلْفَهُ الْأَوَّلُونَ سَمَحَ لَنَا بِإِعَادَةِ قِرَائَتِهِ قِرَاءَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ بَيْنَ الْمَنَاحِجِ السِّيَاقِيَّةِ وَالنَّسْقِيَّةِ وَالْأَلْيَاتِ اللَّسَانِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ وَالْفَلَسَفَةِ الْغَرِبِيَّةِ، وَمِنْ بَيْنِ هَذَا التَّراثِ الْكَمِيِّ يَبْرُزُ التَّراثُ الْبَلَاغِي _ الَّذِي كَانَ بَيَانُ الْجَاهِظِ عَلَى رَأْسِهِ.

فَفِي ظِلِّ شِبُوعِ الْمَنَاحِجِ الْحَدِيثَةِ وَالنَّظَرِيَّاتِ الْغَرِبِيَّةِ، ذَهَبَ الدَّارَسُونَ إِلَى مُقَارَبَةِ التَّراثِ النَّقْدِيِّ الْبَلَاغِيِّ وَفَقَ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ، وَكَانَ بَيَانُ الْجَاهِظِ ضَمَّنَ أَوَّلَى الْإِهْتِمَامَاتِ الَّتِي صَوَّبَ الدَّارَسُونَ أَعْيُنَهُمْ نَحْوَهَا، فَكَانَتْ قِرَاءَةُ بَدْوِي طَبَانَةَ _ لِلْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ عَمُومًا وَبَيَانِ الْجَاهِظِ خُصُوصًا _ أَوَّلَ قِرَاءَةٍ تَارِيخِيَّةٍ لِلتَّراثِ النَّقْدِيِّ الْبَلَاغِيِّ فِي كِتَابِهِ "الْبَيَانُ الْعَرَبِيُّ دَرَسَةُ تَارِيخِيَّةٍ فَنِيَّةٍ فِي أَصُولِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ".

انْفَجَرَ بَعْدَ ذَلِكَ الْبَحْثُ وَالتَّنْقِيبُ فِي التَّراثِ النَّقْدِيِّ الْبَلَاغِيِّ، وَانْطَلَقَتْ الْعِدِيدُ مِنَ الدَّرَاسَاتِ حَوْلَ بَيَانِ الْجَاهِظِ، سِوَاكَ كَانَتْ قِرَاءَاتٍ مُنْفَرَدَةً أَوْ قِرَاءَاتٍ ضَمَّنَ قِرَاءَةَ عَامَةً لِلْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْقِرَاءَاتُ مُتَبَايِنَةً؛ إِذْ اتَّسَمَتْ بِإِبْرَازِ بَيَانِ الْجَاهِظِ

وأهميته في الدرس البلاغي ووضعه الموقع الذي يستحق، خاصة وأنّ البيان عنده كان متفرداً عن غيره _ باستثناء بيان ابن وهب الكاتب _ الذي يقاربه نوعاً ما .

فكانت قراءة الموروث الجاحظي قراءة حدثية تتراوح بين الاتساع والشمول مع كلّ من حمادي صمود في مشروعه النقدي "التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره حتّى القرن السادس" الذي جعل الجاحظ مركز قراءته، ومحمد الصّغير بناني في كتابه "النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين" تعرض لأهم النظريات من خلال كتابه "البيان والتبيين"، وبين الضيق والانحصار مع محمد العمري في كتابه "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها" التي كانت قراءته معاكسة لقراءة حمادي صمود .

انطلاقاً ممّا سبق وقع اختيارنا _ في هذا البحث _ على قراءة محمد الصّغير بناني لبيان الجاحظ من خلال كتابه "النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين"، الذي كانت قراءته قراءة حدثية لسانية، بعد أن غير الدارسون مسار قراءتهم للتراث النقدي البلاغي من الاعتماد على المناهج السياقية التقليدية إلى المناهج النّسقية الحديثة.

لهذا كانت إشكالية بحثنا على النحو الآتي:

كيف عالج محمد الصّغير بناني بيان الجاحظ؟

انطلاقاً من هذه الإشكالية نخرج إلى أسئلة متفرعة تتمثل في:

_ ما هي أهم الدراسات التي تعرّضت لبيان الجاحظ؟

_ كيف كانت قراءتهم لهذا البيان؟ هل كانت قراءة سياقية أو نسقية؟

_ كيف كانت قراءة محمد الصّغير بناني لبيان الجاحظ؟

_ ما هي الآليات التي اعتمد عليها؟ وبما تميّزت قراءته؟

جاءت قراءة **محمد الصّغير بناني** لبيان **الجاحظ** عقب قراءة **حمادي صمود** في مشروعه النّقدي "التّفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره حتّى القرن السّادس" الذي جعل **الجاحظ** مركز قراءته، ولعلنا نجد قراءته تابعة لها في المنهج والبناء. الهدف من هذه الدّراسة معرفة موقع بيان **الجاحظ** في الثّراث البلاغي من جهة، وتحديد أهمّ القراءات التي تناولته حديثاً بين المناهج السّياقية والنّسقية من جهة أخرى، والهدف الأساسي من هذا البحث الكشف عن القراءة التي قدمها **محمد الصّغير بناني** لبيان **الجاحظ**.

سنعتمد في عملنا على المنهج التّاريخي، فنتتبع من خلاله أهمّ القراءات التي تبنت بيان **الجاحظ**، وتطلب هذا البحث أيضاً الاعتماد على آليات أخرى كالتحليل والوصف.

2. بيان الجاحظ عند الدّارسين المحدثين:

لقي بيان **الجاحظ** _ كما سبق وذكرنا _ اهتماماً كبيراً لدى الدّارسين المحدثين، واختلفت القراءة باختلاف المناهج والآليات التي اعتمد عليها الدّارسون، ولعلّ أوّل قراءة لبيان **الجاحظ** كانت مع **بدوي طبانة** في كتابه "البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية".

يرى هذا الأخير أنّ البيان _ عند **الجاحظ** _ هو السّلامة من عيوب اللّسان والابتعاد عن الغموض والالتباس أيّ البيان هو الوضوح، وتحدث عن وجود علاقة بينه وبين الدّلالة التي حصرها **الجاحظ** في خمسة أنواع: اللفظ، الإشارة، الخط، العقد، التّصبة¹، وفي هذه الحالة البيان عنده يُدرس في نطاق أوسع وشامل يتجاوز البيان الأدبي، في حين جعل البيان الأدبي خاصاً بدلالاتين: اللفظ والخط، فهو الأدب المسموع والمكتوب، لهذا اعتبر **بدوي طبانة الجاحظ** « أوّل كاتب في البيان العربي، وأوّل مؤلف فيه »²، ونؤكد ما ذهب إليه **بدوي طبانة فالجاحظ** هو مؤسس البيان

العربي الذي لا نجد له أثرا إلا مع ابن وهب الكاتب في كتابه "البرهان في وجوه البيان"، إذ كان بيان ابن وهب أقرب _ إن لم نقل هو _ إلى بيان الجاحظ، في حين ما نجده عند المتأخرين باسم "علم البيان" مخالفا تماما لبيان الجاحظ وابن وهب، كونه لا يعدو أن يكون سوى وسيلة أو أداة لتمحيص الأدب ونقده وبيان جيده من رديئه.

ولا يختلف الأمر كثيرا مع ميشال عاصي في كتابه "مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ"؛ إذ نجده يتعرض إلى البيان من خلال مفهومين: مفهوم عام ومفهوم خاص³.

حدّد الأول انطلاقا من تعريفين للجاحظ الأول قوله: إنّ البيان « الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي »⁴، والثاني قوله: « اسم جامع لكل شيء كشف قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضح عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع »⁵، ولعلّ هذين القولين دليلان قاطعان على أن البيان عام يشمل اللغة أو الأدب وغير اللغة، وكأننا هنا أمام التسميات التي جمعت بين الدليل اللغوي (دي سوسير) وغير اللغوي (بيرس).

ليحدّد بعد ذلك المفهوم الخاص انطلاقا من أنواع الدلالة _ التي سبق وذكرناها _، وهو عنده يشمل دلالاتي اللفظ والخط.

يختلف الأمر _ في تلقي بيان الجاحظ _ مع الناقد المغربي محمد عابد الجابري، الذي يرى أن الجاحظ في حديثه عن البيان ذهب إلى تحديد شروط إنتاج الخطاب، وذلك في ميدان الأدب شعرا ونثرا، بعد أن حدّد الإمام الشافعي _ وغيره _

« قوانين تفسير الخطاب من خلال حديثه عن البيان »⁶، فالشافعي سبق الجاحظ في حديثه عن البيان وهدفه من ذلك تحديد قوانين تفسير الخطاب البياني من خلال النص القرآني.

حدّد الجابري شروط إنتاج الخطاب البياني عند الجاحظ في خمس نقاط⁷:

* البيان وطلاقة اللسان ← عيوب الخطاب (الجهاز الصوتي).

* البيان وحسن اختيار اللفظ ← الفصاحة.

* البيان وكشف المعنى ← الدلالة.

* البيان والبلاغة ← اللفظ والمعنى.

* البيان سلطة ← حجة، آية، برهان، إقناع، تأثير.

إذن، ذهب الجابري في حديثه عن بيان الجاحظ إلى الحديث عن وظائف البيان مبتدئاً من أدنى وظيفة، وهي الوظيفة الصوتية (سلامة النطق)، لينتقل بعدها إلى الوظيفة التعبيرية (اختيار اللفظ)، ثم يعرض للوظيفة الدلالية (كشف المعنى)، ليصل إلى الوظيفة البلاغية (علاقة اللفظ بالمعنى)، في حين اعتبر الجابري الوظيفة التأثيرية الإقناعية (السلطة) أعلى مراتب البيان بل هي الوظيفة الأساسية والأولى التي يقوم عليها بيان الجاحظ.

فبيان الجاحظ _ حسب الجابري _ هو بالدرجة الأولى سلطة، لأنه وظيفة كلامية، استطاع من خلالها الجاحظ ضحد وتفنيد الآراء التي جاءت بها الشعوبية والزندقة ضد البيان العربي، فهذا الأخير هو الحجة والبرهان لإثبات أنّ للعرب بيانا سلطويا إقناعيا تأثيريا نجده في مختلف الخطابات أولها دستور العرب.

إذن، البيان الذي ذهب إليه الجابري يختلف كلّ الاختلاف عن بيان بدوي طبانة، ميشال عاصي، محمد العمري _ الذي سنتطرق له لاحقاً _ وغيرهم من الدارسين، فلا نجد حديثاً عن الدلالة وأنواعها، فهي غائبة عندهم تماماً، وسبب ذلك

ربما يعود إلى أنَّ الجاحظ كان همَّه الدِّفاع عن البيان العربي وليس إبراز جماله الفني، لهذا استعمله كحجة وسلاح كلامي خاصة وأتته من كبار متكلمي المعتزلة.

إذا كان هؤلاء الباحثون وغيرهم* من الدَّارسين شحذوا جهودهم في إبراز أهمية البيان الجاحظي كمشروع قائم بذاته، بيان شامل واسع واف، في المقابل نجد من حاول تضيق هذا البيان وجعله محدودا ويفضل عليه بيان ابن وهب الكاتب، وكان ذلك مع النَّاقد المغربي محمد العمري الَّذي خالف الدَّارسين _ وعلى رأسهم حمادي صمود الَّذي جعل الجاحظ مركز دراسته _، ورأى أنَّ بيان الجاحظ بيانا ضيقا ومحدودا مقارنة ببيان ابن وهب الكاتب من خلال الدِّراسة الَّتِي قام بها في كتابه "البلاغة العربيَّة أصولها وامتداداتها".

خصَّص العمري بيان الجاحظ بفصل واحد وهو الفصل الرَّابع الَّذي عنوانه بـ "المعرفة والإقناع من البيان إلى البلاغة"، والَّذي أخذ مساحة ضيقة في هذا الكتاب حوالي 24 صفحة من مجموع عدد صفحات الكتاب (544) صفحة، ضف إلى ذلك أنَّ العمري لم يذكر اسم الجاحظ في العناوين الرَّئيسية إلَّا في عنوان واحد "المحتوى الفكري لبيان الجاحظ"، وذكره في عنوان فرعي "الاختلاف في قراءة بيان الجاحظ"، وفي خاتمة الفصل أضاف عنوان "البيان بعد الجاحظ".

فاسم الجاحظ كان غير متردد في قراءة العمري للبيان _ الَّذي هو بيانه _ فهو في العناوين الرَّئيسية يُخفي ملكية الجاحظ للبيان لكنَّ في مضمون تلك العناوين يعترف _ بطريقة مضمرة _ أحقية البيان للجاحظ، خاصة أنَّه يرى أنَّ نهاية اجتهادات الجاحظ في البيان كانت في كتابه "البيان والتبيين"، لهذا بنى قراءته للبيان الجاحظي على هذا الكتاب إذ يقول: « يركز عملنا في كشف العلاقة بين البلاغة و"البيان" على الجاحظ، وعلى كتابه "البيان والتبيين" بشكل خاص، فهو نهاية اجتهادات الجاحظ البيانية »⁸، اختار هذا الكتاب كونه يعدّ الصِّيغة النَّهائية الَّتِي

حوت آراء **الجاحظ** في "البيان"، وهو الكتاب الأخير الذي ألفه **الجاحظ** في حياته قبل وفاته، وهدفه الأساس وغايته من قراءة كتاب **الجاحظ** معرفة بنية الكتاب الذي من خلاله أسس مشروع البيان.

حدّد **العمرى** مفهوم البيان انطلاقاً من ثلاثة تعريفات أوردها في كتابه، الذي يرى أنّه _ يقصد البيان _ مفهوم إجرائي الغاية منه كيف نتوصل إلى عملية الفهم والإفهام إن وجدت.

أمّا حديث **الجاحظ** على أنواع الدلالة هي عند **العمرى** تشكل ما سماه "النظرية الرّمزية الكونية" كونها تجمع الدلالة اللغوية وغير اللغوية، فعملية الفهم والإفهام عنده تكون بوسائل مختلفة لغوية وغير لغوية، وإذا ذهبنا بهذا المعنى إلى عصرنا الحالي نجد أنّ **الجاحظ** سبق السيميائيّات بقرون، فهو في القرن الثّالث هجري استطاع تحديد وسائل البيان التي تعدّ في القرن العشرين منهجاً نسقياً قائماً بذاته.

3. بيان **الجاحظ** عند محمد الصّغير بناني:

خصّص محمد الصّغير بناني كتاب **الجاحظ** "البيان والتبيين" بقراءة لسانية حديثه، لأنّه رأى أنّ الدّارسين اختلفوا حوله، فمنهم من اعتبره مجرد جامع للمفاهيم البلاغية والنقدية، لهذا لم ينل هذا الكتاب اهتماماً عند الدّارسين خاصة المعاصرين، يقول: « وهذا الكتاب لم يجد عند المتأخرين وخاصة المعاصرين العناية الكافية التي هو جدير بها. فهو عند بعضهم: مجموعة من المختارات الجيدة في الشّعر والنثر. وعند البعض مختارات من الأدب من آية قرآنية أو حديث أو شعر أو حكمة ممزوجة بما له من آراء في مسائل عدّة ؟... »⁹، والسبب الذي جعل هؤلاء يعتبرون كتب **الجاحظ** أو كتاب "البيان والتبيين" عبارة عن معارف متعدّدة هو الاستطراد الذي لازم منهج **الجاحظ**، لهذا استقر في ذهنهم أنّ هذا الكتاب تحصيل حاصل لعدّة

معارف من أدب ونقد وبلاغة ... الخ*، وهذا ما جعل الباحث **المصطفى الشاذلي** يصفه بالنص الكلي¹⁰.

جاءت قراءة **محمد الصغير بناني** لبيان **الجاحظ** في كتابه "النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند **الجاحظ** من خلال "البيان والتبيين"، حيث خصص لها الفصل الرابع من الكتاب، الذي عنوانه باسم "البيان"، وقسمه قسمين جعل الأول للبيان والثاني للتبيين.

يرى **بناني** أن **الجاحظ** أعطى أهمية بالغة للبيان، وأن هذا المصطلح يعدّ « من أكثر المفاهيم غموضا والتباسا عند الأدباء والنقاد »¹¹، وقد شكك بعض النقاد في عنوان الكتاب وعلى رأسهم **ميشال عاصي**¹².

وقبل البدء في حديثه عن مفهوم البيان قدّم **بناني** في سطور مقتضبة البيان عند النقاد المحدثين _ دون ذكر أسمائهم _، فذكر أن من النقاد من جعل البلاغة مرادفة للبيان والفصاحة والخطابة والبديع مع وجود اختلاف، ولعلّه هنا يقصد **عبد العزيز عتيق** الذي ذهب في كتابه المعروف "في تاريخ البلاغة العربيّة" إلى هذا الكلام إذ يقول: « عرفنا من عرضنا السابق لتاريخ البلاغة أنّ لفظة "البيان" كانت إلى عصر **الجاحظ** تستعمل بمفهومها العام (...) فلفظة البيان في العصور الأولى كانت تطلق ويراد بها أحيانا الفصاحة أو البلاغة أو الخطابة أو البديع، وتحت لفظة البيان كانت تبحث قضايا بلاغية جزئية ممّا له اتصال بكلّ ذلك »¹³، لكن ما يهمنا هنا كيف عالج **محمد الصغير بناني** بيان **الجاحظ**؟ وهل هو في نظره مرادف للبلاغة أم مفهوم قائم بذاته؟

1.3 كتاب **محمد الصغير بناني**:

صدر كتاب "النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند **الجاحظ** من خلال "البيان والتبيين" عن ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية سنة 1983م في 433

صفحة، بعد المشروع النقدي الذي قدّمه حمادي صمود "التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس"، هذا الأخير جعل بيان الجاحظ مركز قراءته للتراث النقدي البلاغي.

ذهب محمد الصّغير بناني في كتابه هذا يبحث عن الجوانب الأدبية والبلاغية واللّسانية عند الجاحظ من خلال كتابه "البيان والتّبيين"، عارضاً من خلال هذه الجوانب إلى عدّة قضايا ونظريات على _ حدّ تعبيره _ برزت عند الجاحظ وهي:

أ_ نظرية الكلام: نظرية الدّلالات أو المنازل الخمسة، نظرية اللّغة، نظرية اللّفظ والمعنى، نظرية المطابقة.

ب_ نظرية البيان: مفهوم البيان، مفهوم التّبيين.

ج_ نظرية البلاغة.

د_ قضايا البلاغة: الإيجاز، المجاز، الاستعارة، التّشبيه، الشّاهد والمثّل، الكناية، البديع.

هـ_ نظرية الأدب.

حاول محمد الصّغير بناني قراءة كتاب الجاحظ قراءة لسانية لإبراز التقارب بين المواضيع التي طرحها الجاحظ في القرن الثّاني والثّالث الهجري والنّظريات التي برزت حديثاً في القرن العشرين.

فقراءته لهذا الكتاب كانت عامة وشاملة لمختلف القضايا التي عالجه الجاحظ، والتي كانت _ بطريقة أو أخرى _ صلب البحث البلاغي والبياني، وربما نجده قد تميّز _ بعض الأحيان _ عن دراسات أخرى خاصة في حديثه عن "نظرية الكلام" التي أقر فيها أنّه لم يعثر في تفصيله عن نص صريح يوضح وجود نظرية معرفية فلسفية عند الجاحظ والتي سمّاها بـ "نظرية الكلام".*

لم تكن قراءة محمد الصَّغير بناني منصبة على بيان الجاحظ فقط، وإنما تجاوز ذلك إلى البحث عن النّظرية الفلسفية الّتي قدّمها الجاحظ من خلال حديثه عن الدّلالات واللّغة واللفظ والمعنى ومطابقة الكلام لمقتضى الحال وغيرها من الأمور ذات العلاقة، وأثناء ذلك قدم مفهوم البيان عند الجاحظ في فصل لا يتجاوز 34 صفحة، بالرّغم من أنّ بيان الجاحظ أوسع من ذلك إذا ما نظرنا إلى قراءة حمادي صمود، فبناني في قراءته للبيان لم يُدرجه في مكانه المناسب، ولعلّ ذلك راجع إلى عزمه منذ البداية البحث عن النّظريات الّتي عالجهها الجاحظ والّتي كان البيان جزءا منها، وليس البحث منصبا على البيان وحده هذا من جهة، ومن جهة أخرى ربما قد رأى أنّ البيان قد نال حظه من الدّراسة خاصة مع حمادي صمود في مشروعه النّقدي.

2.3 المنهج والآليات:

درس محمد الصَّغير بناني كتاب الجاحظ "البيان والتبيين" قراءة لسانية لإبراز التقارب بين المواضيع الّتي قدمها الجاحظ في القرنين الثّاني والثّالث هجري، والنّظريات الغربيّة الّتي برزت في القرن العشرين، الّتي كان على رأسها وظائف اللّغة عند جاكبسون ومبادئ اللّسانيات الحديثة مع دي سوسير، وهذا ما ذكره في الفصل الرّابع يقول: « ونظرا لهذا كلّه فإننا سنحاول أن نقوم في الفصل الثّالي ليُقصد فصل البيان] بتحليل لهذا المفهوم من خلال النّظام اللّساني الّذي وصفناه حتّى الآن »¹⁴، وفعلا نجد محمد الصَّغير بناني اعتمد على اللّسانيات الحديثة وهذا واضحا وجليا في حديثه عن قضية الوظائف الّتي حدّدها عند عالمين من أعلام اللّسانيات الحديثة: أندري مارتني ورومان جاكبسون، ليكشف من خلالهما موقع الجاحظ في الدّراسات اللّسانية حتّى وإن كان بينه وبينهما زمن بعيد.

3_2_1 الوظائف عند مارتني:

يرى علماء اللسان بصفه عامة أنّ وظائف الكلام اثنان هما: التّوصيل والتّعبير، لكن أضاف عليها أندري مارتني وظيفتين هما: الكلام باعتباره عمود الفكر، والثّانية وظيفة هذا الكلام الذي يؤدي غاية جمالية¹⁵.

3_2_2 الوظائف عند جاكبسون:

إنّ ما أتى به جاكبسون يعتبر نظرية قائمة بذاتها، حدّد من خلالها ست وظائف هي¹⁶:

الوظيفة المرجعية: وظيفة إخبارية هدفها نقل الخبر من المتكلم إلى السّامع أو المتلقي وقد تحمل الصدق أو الكذب.

الوظيفة التّعبيرية أو الانفعالية: هدفها تزويد السّامع بالانطباعات الصّادرة من المتكلم وقد تحمل الصدق أو الكذب.

الوظيفة الإنشائية: تصب اهتمامها نحو السّامع وتختص بصيغ الأمر والنّداء.

الوظيفة ما بعد اللّسانية: تُسهم في إثبات الكلام وتأكيد الصّادر من المتكلم نحو المخاطب.

وظيفة الاتصال: تقوم بربط المكالمات بين طرفي عملية الكلام.

الوظيفة الشّعريّة: هي أساس الخطاب، وهي تهتم بالكلام وكيفية تأديته.

هذه هي وظائف الكلام في الدّرس الحديث، الّتي يرى بناني أنّ الجاحظ

تعرض لها وهي عنده كالآتي:

الوظيفة المرجعية ← مفهوم الخبر والإخبار.

وظيفة ما بعد اللّسانية ووظيفة الاتصال ← مفهوم الاستعانة.

الوظيفة الشّعريّة ← مفهوم التّخير والتّخير.

هذه هي الوظائف الّتي أشار إليها بناني في حديثه، والّتي منها انطلق في

تحديده لمفهوم البيان.

3_3 السِّياق الخارجي لنشأة مصطلح البيان عند الجاحظ:

سبق أن ذكرنا أن محمد الصَّغير بناني تطرق إلى بيان الجاحظ في الفصل الرابع من كتابه سالف الذكر، الذي قسمه قسمين هما: مفهوم البيان، ومفهوم التبيين، وقبل حديثه عن مفهوم البيان عرج إلى الظروف المحيطة بهذا المفهوم _ الظروف الخارجية _.

لم يكن الجاحظ أول من تعرض للبيان فقد سبقه إلى ذلك العديد من العلماء، خاصة أن المصطلح ارتبط منذ البداية بالقرآن الكريم، فكان شائعاً عند الأصوليين والذي يمثلته الشافعي في كتابه "الرسالة"، الذي كان له دراسة خاصة ببيان القرآن الكريم¹⁷.

لينتقل هذا المفهوم بعد ذلك إلى الجانب الأدبي والذي يعدّ خير من مثله الجاحظ، لكن ما السبب الذي جعل الجاحظ يهتم بمصطلح البيان؟ والذي خصص له كتاباً فريداً من نوعه؟

اتفق الدارسون _ وعلى رأسهم باحثنا بناني _ أن الهدف الأساسي الذي جعل الجاحظ يهتم بالبيان عوض البلاغة، أن الأول خاص بالعرب والثاني خاص بغير العرب _ ويقصد بذلك الفرس وغيرهم _، بمعنى آخر اتخذ الجاحظ البيان شعاراً للدفاع عن الإسلام مقابل شعار البلاغة الذي جاءت به الشعوبية والزنادقة، ودليل ذلك عند الباحث أن مفهوم البيان صدر عن الجاحظ نفسه في حين مفهوم البلاغة نقله عن علماء العرب وغير العرب، والمتصفح لكتابه يتأكد من هذا الكلام*.

وقد أدرج الجاحظ في كتابه السبب الذي جعل الشعوبية وغيرها ترفض البيان وهي تتمثل في أربع قضايا ذكرها الجاحظ ولخصها بناني¹⁸:

حرمة البيان: ادعى الشعوبيون أن نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم حرم البيان، وهذا يعني حرمة التعليم والتعلم، وقد ردّ الجاحظ على هذا الزعم مستنداً إلى المحاجة

والمجادلة، باستعمال الحجج التي قدمها الخصم، فكيف يحرم النبيّ البيان الذي دعا إليه القرآن وحث عليه.

الحث على الصّمت: والصّمت نوعا من أنواع البلاغة.

المراء: وهو إخفاء الحق وإظهار الباطل.

الإيجاز والإطالة: أو بمعنى آخر الطّبع والصّنعَة أي أنّ العرب عرفوا الإيجاز والطّبع ولم يعرفوا الإطالة والصّنعَة، وضربت الشّعوبية أمثلة على ذلك، إلّا أنّ الجاحظ ردّها وأبطل ادعاءاتها بحجج مماثلة.

يتضح من ذلك أنّ مفهوم البيان عند الجاحظ قام نتيجة صراع سياسي ديني،

لكن كيف بنى الجاحظ مفهوم البيان والتّبيين؟

قبل الإجابة عن هذا السّؤال أشار الباحث إلى قضية الشّك في عنوان الكتاب، هل هو "البيان والتّبيين" أو "البيان والتّبيين"، بحيث ذهب إلى اعتماد الأوّل لأنّه ورد ذكره في متن الكتاب أكثر من مرّة هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنّ المصادر التي جاءت بعده ذكرته بهذا الاسم مثل: كتاب "الصّناعتين" لأبي هلال العسكري، و"المقدمة" لابن خلدون، و"العمدة" لابن رشيق.

3_4 مفهوم البيان:

نجد محمد الصّغير بناني في هذا المقام يُصدر كلامه بقضية الوظائف الكلامية عند علماء اللّسان والتي سبقت الإشارة إليها، وانطلاقا من هذه الوظائف كان حديثه عن مفهوم البيان.

وصل بناني في مقارنته لمفهوم البيان عند الجاحظ إلى وجود معنى مزدوج

لهذا المفهوم، أحدهما مفهوم لساني تعليمي والآخر مفهوم فلسفي مجازي.

فالمفهوم البياني اللّساني التّعليمي _ بالنسبة للباحث _ هو الذي ورد في

كتاب "البيان التّبيين" قوله: « والدّلالة الظّاهرة على المعنى الخفي هو البيان »¹⁹,

وقوله أيضا: « والبيان اسم جامع لكل شيء كشف قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع »²⁰.

يذهب الباحث إلى وجود غموض حول التعريف الأول بين البيان والدلالة؛ لأن البيان في نظره « حقيقة مجردة قد يصعب على الطلاب تصوّرها بينما الدلالة حقيقة ملموسة يمكن سماعها ومشاهدتها »²¹، ويتضح ما ذهب إليه بناني عندما تناول أصناف الدلالة التي لا تعبر كلّها عن البيان*.

لم يخل هذا الغموض من التعريف الثاني _ حسب الباحث _ إذ نجده في قوله "قبأي شيء بلغت الإفهام" قد يحيل إلى وجود وظائف أخرى للكلام إضافة إلى الوظيفة الأساسية التعبيرية، ويقصد بذلك وظيفة التبليغ والإيصال، إلا أن الباحث فند ذلك لأن المتكلم ينتهي دوره عند التعبير عما يعتريه في النفس، دون أن يتجاوز ذلك إلى عملية الإفهام التي تعود على عاتق السامع، لهذا يكتسب السامع انطلاقاً من هذا المفهوم « حرية مطلقة فهو مخير في أن يأخذ المعاني التي كشفها له المتكلم أو يتركها »²²، فهو ليس مجبراً على حمل المعاني التي يريدها المتكلم، وبيان المتكلم يختلف عن بيان السامع، الأول يعبر عما يدور في نفسه، والثاني يستقبل ذلك الكلام ويؤوله بحسب فهمه.

أمّا المعنى الآخر للبيان _ المعنى الفلسفي المجازي _ والذي ذكره في كتابه الحيوان قوله: « ثم جعل للمستدل سبب يدلّ به على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال وسموا ذلك بيانا »²³، أي هناك علاقة بين الدليل والمستدل (المتكلم) وذلك عندما يريد البحث عن معنى كلمة أو كلام قصد إيصاله للآخر.

وذكر بعد ذلك أنواع الدلالات التي جعل البيان المستدل يشمل أربعة منها: اللفظ والإشارة والعقد والخط، في حين حصر البيان غير المستدل في النّسبة، هذا الكلام _ حسب الباحث _ أدى إلى وجود اضطراب عند تفسيره من قبل الباحثين، إذ اعتقدوا أنّ البيان وأنواع الدلالات لهما نفس المنزلة، وهذا ما جعلهم يستبطنون أنّ اللفظ هو البيان وأنّ دفاع الجاحظ عن البيان كان انطلاقاً من ذلك، في حين ذهب آخرون إلى اعتبار البيان خاص بالمعنى وعلى رأسهم الرّماني وابن رشيّق الذي استحضر في كتابه "العمدة" قولاً للرّماني عن البيان يقول: « قال أبو عيسى الرّماني في البيان: هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك، وقيل ذلك لئلا يلتبس بالدلالة؛ لأنّها إحضار المعنى للنفس وإن كانت بإبطاء »²⁴، فالبيان عندهم يشمل المعنى لا اللفظ.

وفي حديث الجاحظ عن البيان المستدل وغير المستدل كأنّه يشير إلى الكائن الحي الناطق وغيره من الحيوانات غير الناطقة والجماد، بمعنى آخر أنّ البيان يشمل اللّغة باعتبار المتكلم (الإنسان) يعبر عن كلامه وهو الجانب اللّساني، كما يشمل دلالات غير لغوية وهي الخاصة بما هو موجود في الكون، وهنا يحيلنا إلى السيميائية التي تهتم بالجانب اللّساني اللّغوي عند سوسير والجانب الفلسفي الميتافيزيقي عند بيرس.

4. خاتمة:

أمّا بعد فقد حاولنا خلال هذا البحث عرض آراء متباينة حول بيان الجاحظ، لكنّ الهدف والغاية الأساسية من البحث هو قراءة بيان الجاحظ من منظور محمد الصّغير بناني، ووصلنا إلى النتائج التالية:

* اختلاف الدّراسات السّابقة _ علماً أنّنا لم نتعرض لكلّ الدّراسات _ منهجاً وتحليلاً، من حيث المنهج اختارت طائفة المناهج السّياقية _ خاصة المنهج التّاريخي _ وسيلة

لقراءتها، وأخرى لجأت إلى المناهج النَّسقية أداة لقراءتها، الأولى مثلها بدوي طبانة وميشال عاصي، والأخرى يمثلها محمد عابد الجابري ومحمد العمري، أمّا من حيث التحليل اعتبر البعض بيان الجاحظ بيانا شاملا ذات أبعاد متعدّدة ومختلفة، في حين عرف بيان الجاحظ قراءات أخرى مناهضة للقراءات الأولى جعلت هذا البيان ضيقا ومقتضبا وهذا نجده مع محمد العمري.

* تعتبر قراءة محمد الصّغير بناني لبيان الجاحظ أهم قراءة تمّ التركيز عليها في هذا البحث، وكانت هذه القراءة ضمن ثنائية التّراث/ الحداثة، بمعنى آخر قراءة التّراث من منظور حداثي.

* تقطن محمد الصّغير بناني إلى دور مصطلح البيان عند الجاحظ، الّذي وجد دفاعا عن القرآن واللّغة العربية.

* اعتمد محمد الصّغير بناني في قراءته لبيان الجاحظ على اللّسانيات الحديثة، فكانت وظائف اللّغة عند أندري مارتني ورومان جاكبسون انطلاقة لتحديدّها عند الجاحظ، فهي عنده تتمثّل في:

الوظيفة المرجعية ————— مفهوم الخبر والأخبار.

وظيفة ما بعد اللّسانية ووظيفة الاتصال ————— مفهوم الاستعانة.

الوظيفة الشّعرية ————— مفهوم التّخير والتّخيير.

* انطلاقا من الوظائف السّابقة حدّد محمد الصّغير بناني مفهوم البيان، وهو مفهوم مزدوج: الأوّل مفهوم لساني تعليمي والآخر مفهوم فلسفي مجازي.

* تميزت هذه القراءة بإظهار مكانة الجاحظ في اللّسانيات الحديثة، أو بمعنى آخر أسبقية الجاحظ لعلماء الغرب في تحديد وظائف اللّغة.

5.المراجع

- ¹. ينظر: أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ج1، ص76.
- ². بدوي طبانة، البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط2، 1958، ص49_50.
- ³. ينظر: ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1974، ص36 وما بعدها.
- ⁴. أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص75.
- ⁵. المصدر نفسه، ج1، ص76.
- ⁶. محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي _ دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية _، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 1996، ص24.
- ⁷. ينظر: المرجع نفسه، ص26 وما بعدها.
- * لم نستطع ذكر كلّ الباحثين الذين قرأوا بيان الجاحظ حتّى لا نطيل الموضوع، لهذا اكتفينا ب: بدوي طبانة، ميشال عاصي، محمد عابد الجابري، محمد العمري.
- ⁸. محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1999، ص189.
- ⁹. محمد الصّغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص45.
- * اختلف الدارسون حول سمة الاستطراد الذي لحق الجاحظ ومؤلفاته، فمنهم من عدّه عيباً باعتباره سبباً في الغموض واللبس الذي جعل القارئ يسيء فهم الجاحظ وحاولوا إيجاد مبررات لهذا النوع من التعبير، فذهب علي بوملحم إلى أنّ المرض (داء الفالج والنقرس) الذي أصاب الجاحظ كان سبباً في هذا الاستطراد وعدم التنظيم والتبويب، واستدل بذلك من كلام الجاحظ نفسه في كتابه "الحيوان"، في حين اعتبرها شوقي ضيف خللاً لحق الكتاب، وأعاد ذلك إلى المرض وثقافة الجاحظ الواسعة والشفاهة، وغيرهم من الباحثين، وفي المقابل نجد من سلك مسلكاً مغايراً عن هؤلاء، إذ اعتبر شارل بلا استطرادات الجاحظ قمة الإبداع، ينظر: محمد عبد البشير مسالتي، الجاحظ في قراءة الدارسين المحدثين، رسالة دكتوراه، جامعة سطيف 2، قسم اللغة العربية، الجزائر، 2014، ص191_192.
- ¹⁰. ينظر: المرجع نفسه، ص190.

- ¹¹. محمد الصّغير بناني، النّظريات اللّسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتّبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1983، ص179.
- ¹². ينظر: ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنّقد في أدب الجاحظ، ص40.
- ¹³. عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربيّة، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ط1، ص89.
- * تعرض محمد الصّغير بناني إلى هذه النّظرية في الفصل الثّالث من الكتاب، محاولا قراءتها انطلاقا من اللّسانيات الحديثة.
- ¹⁴. محمد الصّغير بناني، النّظريات اللّسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتّبيين، ص179.
- ¹⁵. ينظر: المصدر نفسه، ص193_194.
- ¹⁶. ينظر: المصدر نفسه، ص194_195.
- ¹⁷. ينظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي _ دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثّقافة العربيّة _، ص22.
- * إنّ المتصفح لكتاب "البيان والتّبيين" يتأكّد من الكلام الذي ذهب إليه محمد الصّغير بناني، فالجاحظ في حديثه عن البيان يتصدر كلامه في كلّ التعاريف التي ذكرها، لكنّ حديثه عن البلاغة يختلف فهو ينقل لنا تعاريف لابن المقفع ويشير بن المعتمر وصحار العبدي من العرب وتعاريف الفرس والهنود والرّومان وغيرهم.
- ¹⁸. ينظر: محمد الصّغير بناني، النّظريات اللّسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتّبيين، ص182.
- ¹⁹. أبو عثمان الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، ص75.
- ²⁰. المصدر نفسه، ج1، ص76.
- ²¹. محمد الصّغير بناني، النّظريات اللّسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتّبيين، ص199.
- * أصناف الدّلالة عند الجاحظ خمسة: اللفظ، الإشارة، الخط، العقد، النّسبة (الحال)، والبيان عنده خاص بالمصطلحات الثّلاثة الأولى.
- ²². محمد الصّغير بناني، النّظريات اللّسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتّبيين، ص199.

- ²³. أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1965م، ج1، ص33.
- ²⁴. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م، ج1، ص254.